مصر وماء النيـــــل

وحوادث الحبشة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تجرى الآن على حدود الحبشة حوادث خطيرة ، ويكشف الاستعمار الايطالى عن نياته ومطامعه نحو الحبشة شيئاً فشيئاً ؛ وقد احتلت الجنود الايطاليـة بالفعل بعض مواقع ومراكز حبشية على مقربة من حدود الصومال الايطالى ، وما زالت إيطاليا تحشد قواتها فى تلك الأنحاء ، وترهق الحبشة بمطالبها ودعاويها ؛ والحبشة من جانبها تلتمس تدخل عصبة الأمم ، وتشهدها على هذا الاعتداء ، ولـكن ماذا عسى أن تفعل عصبة جنيف إزاء خطة مبيتة مدبرة تترقب إيطاليا الفاشستية الفرصة لتنفيذها منذ أعوام ؟ ولقد بينا فى مقال سابق أدوار هذا النضال الذى يضطرم منذ أواخر القرن الماضى بين الحبشة والاستعمار الغربى ، وكيف أن إيطاليا استطاعت فى وقت من الأوقات أن تفرض حمايتها على الحبشة بعد أن احتلت مصوع والأريترية ، وكيف استطاعت الحبشة لأعوام قلائل أن تحطم هذا النير الذى حاولت إيطاليا أن تضعه فى عنقها ، وأن تسحق الجيوش الايطالية فى موقعة « عدوه » الشهيرة (سنة ١٨٩٦) ، وأن ترغم إيطاليا وأوربا على احترام استقلالها . وسوف تنظر عصبة الأمم فى هذا النزاع بعد أيام قلائل ، ولـكنا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن أن العصبة لن تستطيع شيئاً ، وأنها كما فشلت فى المسألة المنشورية ورد عدوان اليابان لمن الصين ، ستلقى مثل هذا الفشل فى حل النزاع الايطالى الحبشى ، وسيكون القول الفصل للقوة المادية ، فاذا استطاعت إيطاليا أن تتوغل فى الحبشة فسوف تمضى فى تنفيذ خطتها المرسومة لغزو الحبشة واحتلالها كلها أو بعضها ، ولن ينقذ الحبشة من هذا الخطر على حرياتها واستقلالها سوى الاعتماد على نفسها وما تستطيع أن تتذرع به من وسائل المقاومة والدفاع

وقد كان حرياً أن تلقى هذه الحوادث صداها فى مصر وأن تثير فيها أعظم اهتمام : فبين مصر والحبشة علائق تاريخية قديمة ، والشعب الحبشى تابع من الوجهة الدينيـة للـكنيسة القبطية المصرية ، وبطريرك الحبشـة أو زعيمها الدينى مصرى يعينه البطريرك المصرى ؛ ومن جهة أخرى فان لمصر مصالح خطيرة فى الحبشة تتعلق بمياه النيل ومنابعه ؛ فالنيل الأزرق الذى يمد النيل بكميات عظيمة من الماء والطمى المخصب ينبع من بحيرة تسانا الحبشية التى تقع فى شمال الحبشـة فى ولاية تجرى ؛ وعلى مقربة من هذه البحيرة تقع مستعمرة اريترية الايطالية ؛ ولايطاليا فى هذه المنطقة مطامع اقتصادية كبيرة . والحبشة لا تجهل أهمية تسانا ولا خطورة المصالح الخارجية المتعلقة بمائها ؛ وقد بذلت انـكلترا فى العهد الأخير جهوداً عظيمة لتحصل من الحبشة على امتياز بماء هذه البحيرة حفظاً لمصالحها الاقتصادية فى السودان ، وخشية أن تنافسها فى ذلك دولة أوربية أخرى فتهدد هذه المصالح ؛ وكانت الحـكومة الحبشية تميل إلى منح هـذا الامتياز لشركة أمريكية كبيرة ، وقد ذهبت بالفعل شوطاً بعيداً فى هذا السبيل ، وقامت هـذه الشركة ببعض الأعمال والاجراءات التمهيدية فى منطقة البحيرة ، ولـكن الحبشـة آثرت فى النهاية أن تستبقى إشرافها وسـيطرتها على البحيرة ، ولم تـكن جهود السياسـة البريطانية بعيدة عن هذا القرار . وتعمل السياسة البريطانية اليوم على أن تضطلع مصر بأعباء النفقات التى تقتضيها المشاريع الخاصة بمنطقة تسانا ، وقد بذلت مصر فعلا مبالغ طائلة فى هذا السبيل

---

* * *

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوى كلمةُ الروح : الله أكبر . ويُجيبها الناسُ : الله أكبر . ليعتادَ الجماهير كيف يُقادون الى الخير بسهولة ، وكيف يحـقّقون فى الأنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد ؛ فتـكون الأستجابةُ إلى كل نداء اجتماعىّ مغروسةً فى طبيعتهم بغير اسْتِكْراه

* * *

النفس أسمىَ من المادّةِ الدنيئة ، وأقوى من الزمن المخرّب ، ولا دِينَ لمن لا تشعرُ نفسُه من الدناءة بأنفَة طبيعية ، وتحمل همومَ الحياة بقوة ثابتة

لا تضطربوا ؛ هـذا هو النظام ، لا تنحرفوا ؛ هـذا هو النّهجْ . لا تتراجعوا ؛ هذا هو النداء . لن يَكْبُرَ عليكم شىءٌ ما دامت كلمتُـكم : الله أكبر !

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

كان يجدر بمصر إذن أن تتتبع حوادث الحبشـة بمنتهى الاهتمام ، وأن تقدر جميع الاحتمالات التي تترتب على نجاح إيطاليا في غزو هـذه المنطقة ، إذا قدر لحلمها النجاح ؛ ولـكن مصر ترغم بكل أسف على أن تقف من هذه الحوادث موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر شيء ؛ والسياسة الانـكليزية تأخذ بيدها كل الأمر سواء باسمها أو باسم مصر ؛ والسياسة الانكليزية تحرص على مصالحها في السودان قبل كل شيء . وقد كان التوازن الانـكليزي الايطالي في تلك المنطقة يحول دون وقوع تطورات جديدة ؛ ولـكن الظاهر أن إيطاليا الفاشـستية استطاعت أن تتفاهم مع السياســة البريطانية ، وأن تقنعها بوجوب التسليم بمطامع إيطاليا وتفوق مصالحهـا في المنطقة الحبشية ، وهي مطامع نوهت باحترامها المعاهدة الثلاثية التي عقدت في سـنة ١٩٠٦ بين إيطاليا وانـكلترا وفرنسا ؛ وإيطاليا تقوم الآن بتنفيذ خطة مقررة لا ترى فيها انكلترا أو فرنسا ما يدعو الى الاعتراض ، بل لقد تقدمت السياسـة البريطانية لمعاونة الاستعمار الايطالي على التوسع ، فحملت مصر على عقد معاهدة جنبوب ، والنزول لايطاليا عن بعض أراضيها ، وعادت هذا العام فنزلت لايطاليا باسم مصر عن جزء من واحة العوينات الواقعة في السودان الغربي مما يلي برقة ، وها هي الآن تترك ايطاليا حرة في تدبير اعتدائها على الأراضي الحبشـية ، وقد أشرنا في مقال سابق الى أن أهم عامل في وقوف السياسـة البريطانية هذا الموقف هو ظهور النفوذ الاقتصـادي الياباني في تلك المنطقة ، وهو نفوذ تحاربه بكل ما وسعت وأينما كان

* * *

كان ماء النيل وما زال أعظم قنية تحرص عليها مصر ؛ ومنذ فجر التـاريخ تشعر مصر بحق أن حياتها تتوقف على مياه هذا النهر الخالد ، وبأن كل ما حبتها به الطبيعة من النعماء والخصب إنما هو من جريانه وفيضه ؛ وكم نـكبت مصر ، وعانت أهوال القحط والوباء ، وفقدت من أبنائها الملايين ، لأن النيل لم يسعفها بوافر فيضه . ومصر تعمل منذ أقدم العصور للفوز بأكبر قسط من هذا الغيث المبارك ، وتسعى بكل ما وسعت لضبطه واستثماره ، وكثيراً ما سير الفراعنة الحملات الى أعالي النيل للوقوف على أسرار هـذا النهر العظيم واستقصاء منابعـه والسهر على سلامة مجراه . وكان طبيعياً أن ترث دول مصر الاسلامية هذا الاهتمام بأمر النيل ؛ وأي دولة لم تقدر أن النيل هو حياة مصر ؟ وكانت حكومات السلاطين تعنى باستقصاء كل ما يتعلق بمجرى النيـل وأحوال جنوبي مصر والنوبة ؛ وكانت تعرف أن الحبشة تسيطر على قسم هام من منابع النيل ، وكانت الحبشة تقدر من جانبها أهمية هـذا الاشراف الذي يتعلق بمصالح لمصر تعرف أنها حيوية جوهرية ، وتتخذ هذا الأشراف في أحيان كثيرة وسيلة لنوع من الضغط السياسي تتذرع به لتحقيق بعض مصالحها ومطالبها المعلقة على إرادة مصر ؛ ذلك أن مصر كانت تسيطر على بيت المقدس وبها الأماكن النصرانية المقدسة ، وتسيطر على أرواح ملايين من النصارى ، وبها مركز البطريركية المرقسية التي تتبعها الحبشة من الوجهة الدينية . ففي عصور الاضطراب أو الاضطهاد حيثما يصيب المصالح النصرانية أو الرعايا النصارى شيء من الظلم أو الغبن ، كان ملوك الحبشة يسعون لدى سلاطين مصر لرفع هذا الاضطهاد ، أو لتحقيق بعض المنح كانت تعاد بعض الـكنائس التي هدمت ، أو يطلق سراح المعتقلين ، أو غير ذلك من المطالب ؛ وكان ملوك الحبشة يجدون داعماً في التلميح إلى ماء النيل وإلى منابعه الواقعة تحت إشرافهم أداة قوية لتحقيق مطالبهم ، وكذلك كانت سيطرتهم على أرواح كثير من الرعايا المسلمين في بعض الولايات الحبشية عاملا آخر من عوامل الضغط ، مثلما كانت سيطرة السلاطين على أرواح ارعايا النصارى

وقد انتهت إلينا بعض وثائق قديمة هامة تلقي ضوءاً على أهمية هذا التجاذب السياسي بين مصر والحبشة ، ومداره ماء النيل والتنويه بخطورته واحتمال حجزه عن مصر ؛ ومن ذلك وثيقة طريفة وجهت من ملك الحبشة إلى سلطان مصر سـنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) ، وكان نجاشي الحبشة يومئذ « زرع يعقوب » الملقب بقسطنطين ، وسلطان مصر هو الظاهر جقمق الذي تولى الملك سنة ٨٤٢ هـ ؛ ووصلت هذه السفارة الحبشية إلى بلاط مصر في ١٨ رجب سنة ٨٤٧ هـ ، على يد وفد حبشي يحمل هدية نفيسة إلى السلطان منهـا عدة كبيرة من الجواري والحلي والأسلحة الذهبية ؛ ورسالة طويلة من النجاشي إلى السلطان ، ينوه فيها بما بلغه من حزمه وعدله وحسن سيرته ، وبما كان من تسامح أسلافه السلاطين نحو النصارى ، ويعتب عليه فيما بلغه من اضطهاد

النصارى فى ظل حكمه ، فى حين أن المسلمين فى الحبشة ، وهم كتلة كبيرة ، يلقون كثيراً من ضروب التسامح والرعاية ؛ ويشير إلى سيطرة الحبشة على ماء النيل فى هذه العبارة : « وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بلادكم من الشى إليكم لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية ينصرف فيها إلى أماكن أخر قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والمشقة على عباد الله »[1] وقد لبثت علائق مصر الاسلامية والحبشة عصوراً تدور حول هاتين النقطتين الخطيرتين : المسألة الدينية أعنى معاملة مصر لرعاياها النصارى ، ومعاملة الحبشة لرعاياها المسلمين ، ومسألة مياه النيل ؛ وكانت مصر تستعمل المسألة الأولى وسيلة للضمان والتوازن فى المسألة الثانية ؛ وكذلك مسألة إشرافها على الكنيسة القبطية ومن ثم على تعيين المطران الحبشى ؛ ومنذ القرن السابع الهجرى نجد سلسلة من السفارات والمراسلات المنظمة تتبادلها مصر والحبشة ، ففى عصر الظاهر بيبرس وردت مكاتبات ودية من الحبشة إلى سلطان مصر تنوهاً بحسن العلائق بينهما[2] ؛ ووردت على مصر سفارة حبشية فى عصر الظاهر برقوق من الملك داود نجاشى الحبشة وهو والد قسطنطين السابق ذكره ؛ وأرسل الملك الظاهر چقمق سفارة إلى الحبشة رداً على السفارة التقدمة[3] ولكن النجاشى استقبل رسل السلطان أسوأ استقبال ، لأن السلطان رد عليه رداً لم يرقه ، ولم يمد بتحقيق مطالبه

* * *

ولم تغفل مصر فى العصر الحديث هذه الحقيقة الخالدة ، وهى أن حياتها من النيل وإليه ، ومستقبلها الأقتصادى متوقف على حسن استثمارها لمائه ؛ وكانت تلك الخرافات القديمة التى تحيط بمنابع النيل العليا قد أخذت تغيض شيئاً فشيئاً ، وتبدو أهمية الأحاطة بهذه المناطق وإشراف مصر عليها ؛ وكانت عندئذ فتوحات مصر فى السودان منذ أوائل القرن الماضى ، ثم فتوحاتها فى بعض المناطق الحبشية ، واستيلاؤها على كثير من هذه الأنحاء ، ووصول الحملات المصرية إلى أعالى النيل الأبيض ومناطق البطرة وبحر الغزال ، ووقوفها على كثير من أسرار النهر العظيم وطريقة جريانه ووصولها إلى منطقة تسانا فى الحبشة ، وسيطرتها على مجرى النيل الأزرق كله . ثم كانت البعوث الأكتشافية التى أخذت مصر بقسط وافر فى إعدادها وتنظيمها لأكتشاف منابع النيل ، والأحاطة التامة بظروفها الجغرافية ، فكانت بعوث أمين باشا (ادوارد شنتزر) ، والسير صمويل بيكر ، والكبتن سبيك وغيرهم فى أواخر القرن الماضى ؛ وأكتشفت منابع النيل الأصلية فى قلب أفريقية ، ورفع القناع الأخير عن الأساطير التى أحاطت بها ، وعرفت مصر من أين يأتيها وكيف يسير اليها الغيث المبارك

ومنذ أوائل هذا القرن تعنى الحكومة المصرية أكبر العناية بأنشاء المشاريع الهندسية الكبرى سواء فى مصر أو السودان ، لضمان انتفاع مصر بأكبر قسط من مياه النيل ، وقد أنفقت مصر إلى اليوم فى هذا السبيل عشرات الملايين ؛ وكان آخر هذه المشاريع مشروعا تعلية خزان أسوان ، وإنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض . وما زالت تمت مشاريع أخرى فى أعالى النيل الأبيض ، وفى منطقة بحيرة تسانا يراد أن تحمل مصر على القيام بها

* * *

ولا ريب أن السياسة البريطانية تعمل من جانبها على أن ينتفع السودان بأكبر قسط من مياه النيل ، وأن تجنى بريطانيا من وراء ذلك أعظم الثمار الأقتصادية ، والسياسة البريطانية ما زالت تحمل مصر على إنفاق الملايين فى مشاريع النيل السودانية باسم المصالح المصرية ؛ وقد استطاعت بريطانيا العظمى أن تستأثر فى العهد الأخير بالسيطرة على السودان ، وأن تقضى فيه على كل نفوذ فعلى لمصر ، والسياسة البريطانية تعترف بحقوق مصر فى مياه النيل ، ولكنها لا تتأخر عن الضغط على مصر من هذه الناحية إذا اقتضت مصالحها ذلك ، وقد لجأت فعلاً إلى هذا الضغط فى أواخر سنة ١٩٢٤ لمناسبة مقتل السردار ، فأنذرت مصر فى بلاغها النهائى بأن حكومة السودان سترفع كل قيد وتحديد عن رى أراضى الجزيرة ، أو بعبارة أخرى ستطلق فيها من المياه ما شاءت دون النظر إلى حقوق مصر وحاجاتها

(١) راجع هذه الوثيقة الشهيرة بأكملها فى « التبر المسبوك » للسخاوى ص ٦٧ وما بعدها
(٢) راجع صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩ — ١٢٠
(٣) « التبر المسبوك » ص ٧٠ و ٧١